طلال عوكل*

غزة تنتصر لدورها التاريخي

بين ٣٠ آذار/مارس، و١٥ أيار/مايو، سبعة وأربعون يوماً من النشاط العارم، والإبداع المتواصل الذي يفاجىء الصديق قبل العدو. لقد بدت الفكرة رومانسية حين اقترحتها مجموعة من الشباب على طاولات الحوار مع الفصائل، ومنظمات المجتمع المدني، وبعض الشخصيات الوطنية والاجتماعية، لكنها ما لبثت أن تحققت على نحو أذهل الجميع، بما في ذلك مَن انخرطوا في بدايات الحوار. فغزة التي أراد الاحتلال أن يعرّفها على أنها مصدر للإرهاب، ولا تحسن سوى استخدام الصواريخ والأنفاق، وخوض الحروب، وتقديم الضحايا بالآلاف، غزة هذه تعيد صوغ دورها، وتقدم نفسها على نحو مختلف..

كانت الفكرة في البداية أن تؤدي مسيرات العودة وكسر الحصار إلى تحقيق أمرين أو أحدهما على الأقل، فإمّا أن تشكل ضغطاً قوياً غير مسبوق على طرفَي الانقسام لتجاوز عقباته، وإمّا أن ينجح عشرات أو ربما مئات الآلاف في كسر الحصار. لم يكن في وارد المبادرين أن مسيرات العودة ستؤدي إلى عودة اللاجئين إلى قراهم التي يرونها بالعين المجردة من خلف السياج الحدودي الوهمي الذي اعتبرته إسرائيل وتعاملت معه على أنه حدود دولية تفصلها عن كيان معادٍ بحسب قرارها في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧.

وتركز السؤال الرئيسي أمام الشباب الذين بادروا إلى طرح الفكرة، والاتصال بالفصائل، على دور الشباب الفلسطيني الذي يعاني التهميش والفقر والبطالة من جهة، وعلى دور قطاع غزة في مواجهة صفقة القرن من جهة أُخرى. أمّا الفصائل الغارقة حتى أذنيها في التفكير في الخيار المسلح، فتأخرت في هضم الفكرة، ثم سلّمت بها من واقع غياب الخيارات والبدائل، بما في ذلك خيار التصعيد المسلح مع إسرائيل، لما ينطوي عليه من تكلفة عالية، وعدم الثقة بإمكانات الاستثمار الإيجابي لهذا الخيار.

الخيار الممكن

كأن الفصائل وجدت ضالتها في خيار الانخراط في مسيرات العودة الكبرى، وبدا مفاجئاً للكثيرين أن تبدي "حماس" موافقة على الاستنفار والتحشيد في مناسبة يوم الأرض. وربما يمكن قراءة هذا

* كاتب ومحلل فلسطيني.

التطور في سياق انحياز حركة "حماس" المتدرج نحو الوطنية الفلسطينية.

حين نعرض وقائع الأسابيع المنصرمة وانتفاضة الشباب منذ ٣٠ آذار/مارس، يتعين علينا أن ننحني تقديراً واحتراماً واعترافاً بالدور الكبير والمبدع للشباب الفلسطيني. لقد انطلقت الفكرة على أساس وطني، فتشكلت الهيئة الوطنية لمسيرات العودة الكبرى وكسر الحصار، والتي يشارك فيها الشباب بقوة الحضور والأفكار المبدعة، وكان أملهم كبيراً بأن يتم تعميم هذه الفكرة إلى بقية الأراضي الفلسطينية المحتلة والشتات. وكانت الاستجابة النظرية واعدة وإيجابية، إذ جرى تشكيل تنسيقات في العديد من الدول، غير أن المحصلة لم تتجاوز حالة التضامن الموسمية المعتاده.

في ١٤ و١٥ أيار/مايو، ذكرى النكبة، توحد الفلسطينيون في الميدان، وبدا كأن الكل الفلسطيني على المستويين السياسي والشعبي، يخوض معركة واحدة تتجاوز وتفضح الأسباب الحقيقية التي تحول دون إنهاء الانقسام، ولها علاقة بالصراع على السلطة التي يشكو الكل من ضعفها وهشاشتها.

مرة أُخرى تلتحق القيادات بالشعب الذي يسبقها خطوات، مثلما حدث في معركة البوابات الإلكترونية في المسجد الأقصى، فتعقد اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية لحركة "فتح" اجتماعاً مهماً افتتحه الرئيس محمود عباس بكلمة موجزة أهم ما جاء فيها أن الوقت حان للبدء بتنفيذ قرارات المجلسَين المركزي والوطني، وأن هذه القرارات لم تعد مطروحة للنقاش بما أنها ملزمة للجهات التنفيذية.

ينبهر الفلسطينيون قبل العرب والعالم، بما يبدعه الشباب والفصائل في قطاع غزة، الذين تعرضوا لحروب مدمرة كانت تنتهي بوقوف القادة والناطقين الإعلاميين فوق ركام الدمار ليعلنوا الانتصار تلو الانتصار.

وتظهر الإبداعات على نحو أفضل من خلال متابعة النشاطات اليومية للشباب الذين تحلّوا بجرأة عالية، واستعداد للتضحية، إذ أقيمت خيام تحمل أسماء القرى والمدن الفلسطينية، شغلتها عائلات لاجئة استقرت فيها وأدارت حياتها اليومية بأبسط الوسائل التي تذكّر بخيام ما بعد النكبة مباشرة.

كما تظهر تلك الإبداعات في التشكيلات التي نظمها الشباب وناشطو الهيئة الوطنية للمسيرة، فهذه فرقة إطارات الكاوتشوك، وتلك فرقة الطائرات الورقية، وأُخرى لقصّ السياج الفاصل...إلخ، الأمر الذي أوقع الإسرائيليين في الحيرة. مَن يخطر في باله أن الطائرات الورقية التي يلعب بها الأطفال يمكن أن تكون سلاحاً فاعلاً يربك الجيش الإسرائيلي، فلا يجد طريقة ملائمة لمواجهته؟

هذا ما تجيده إسرائيل

لم تجد إسرائيل وسيلة لتجنّب الآثار البيئية لحرق آلاف إطارات الكاوتشوك التي يجتاح دخانها الكثيف جنوب إسرائيل، إلاّ بمنع توريدها إلى القطاع، وخصوصاً أن ثمة هدفاً آخر من وراء حرقها هو التشويش على القناصة ومطلقي القنابل الغازية المسيلة للدموع، الأمر الذي دفع الجيش الإسرائيلي إلى الاستعانة بطائرات مسيّرة لإلقاء مثل هذه القنابل على الجموع المحتشدة بالقرب من السياج الحدودي.

منذ قرار شارون إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي في قطاع غزة، وتدمير المستعمرات في سنة ٢٠٠٥، كان السؤال الأثير الذي تتداوله النخبة من رجال القانون والحقوق والسياسيين الإسرائيليين هو كيف لغزة أن تُفشل مخططات إسرائيل التي أرادت التنصل من مسؤولياتها القانونية والإنسانية تجاه

مليونَي فلسطيني في قطاع غزة، وذلك بموجب القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة؟ فبعد ذلك الانسحاب بعامَين اتخذت إسرائيل قراراً بالتعامل مع قطاع غزة باعتبارة كياناً معادياً، ولم تتوقف عن فرض حقائق على الأرض للتخلص من مسؤولياتها تجاه القطاع. غير أن الفلسطينيين بعد أحد عشر عاماً، يعودون بقوة وبوسائل شعبية سلمية إلى ملاحقة دولة الاحتلال، وإفساد مخططاتها، وإرغامها أمام الضغط الشعبي وما يولّده من ضغط أممي، على الشعور بالقلق العميق والارتباك، والتصرف عبر وسائل إجرامية تتفق مع طبيعتها كدولة احتلال تمارس إرهاب الدولة العنصرية. وينجح أهل القطاع في تنظيم الاشتباك مع الاحتلال بوسائل غير عنيفة، فيخوضون حرباً على إسرائيل من نوع مختلف، ويراكمون مزيداً من الوقائع التي تدينها بارتكاب مجازر وجرائم حرب من دون أي مبرر.

القضية إلى مكانها الصحيح

مع الحراك السلمي على حدود قطاع غزة، تصدرت القضية الفلسطينية اهتمامات المجتمع الدولي، إذ اضطر مجلس الأمن الدولي إلى الانعقاد أربع مرات، واجتمع المجلس الدولي لحقوق الإنسان واتخذ قرارات مهمة. كما عُقدت القمة العربية باسم القدس، وتوالت اجتماعات الجامعة العربية، ومنظمة التعاون الاسلامي، ولم تبقَ دولة ذات وزن إلاّ وأدانت الإرهاب الصهيوني، وطالب كثير من المسؤولين الأمميين ومنظمات العدالة الدولية، بتشكيل لجان تحقيق مستقلة. العالم كله يتحرك على وقع أقدام الشباب الفلسطيني الجائع والمهمش والذي قرر أن يغير قواعد اللعبة، وأن يمسك إسرائيل من خاصرتها الضعيفة من خلال المقاومة الشعبية السلمية.

قد يتساءل البعض عن غير حق عمّا إذا كان الإنجاز الذي تحققه مسيرات العودة يستحق الثمن الذي يتكبده الفلسطينيون، لكننا إذا وضعنا جانباً المناكفات الفلسطينية الداخلية وحسابات الدعم بين أطراف الانقسام، فسنجد أن مسيرات العودة ليست أم المعارك ولا هي آخرها، وإنما هي حلقة مهمة من حلقات مواجهة صفقة القرن وتبعاتها التي تهدد بإسقاط حقوق الفلسطينيين. لكن مَن يطرح هذا السؤال عليه تقديم البدائل، فإذا كانت المقاومة المسلحة قادت إلى ثلاث حروب مدمرة، فضلاً عن آلاف الشهداء والجرحى، ومن دون أن تحقق أي إنجاز، فهل يحقق الهدوء والاستكانة أي إنجاز، أم إن ذلك يشجع إسرائيل على الإسراع في تحقيق مخططاتها؟

صحيح أن آمال الهيئة الوطنية لمسيرات العودة الكبرى، بإمكان تحريك جبهات المقاومة الشعبية في أماكن وجود الفلسطينيين كلها، قد أصابها الإحباط نسبياً، لأن ردات الفعل في الضفة والشتات والأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٤٨، لم تكن على قدر التوقعات، ولأن الانقسام الفلسطيني وضع بصماته بقوة على مستوى الحراك الشعبي ووتيرته، إلاّ إن الأمل هو ألاّ يبقى هذا الحراك الشعبي السلمي محصوراً في قطاع غزة.

إفشال محاولات الاستدراج

لم تصدق إسرائيل في البداية أن الفلسطينيين يمتلكون العزم على خوض هذا الحراك، إذ تعودت أن تخاطب الفلسطينيين في غزة بالصواريخ والطائرات الحربية وأنواع الدمار كلها، لكنها فوجئت بأن

حركات المقاومة الإسلامية اعتمدت أسلوب المقاومة الشعبية، وبدأ خطباؤها يتحدثون عن مارتن لوثر كينج والمهاتما غاندي ونيلسون مانديلا.. ومنذ البداية حاولت إسرائيل جر المقاومة إلى الرد عسكرياً، فقام الطيران الإسرائيلي عدة مرات بقصف مواقع للمقاومة، وهدد قادتها بالاغتيال، لكن الفصائل الفلسطينية التي أدركت دوافع العدوان الإسرائيلي مارست ضبط النفس، وأفشلت المحاولات الإسرائيلية.

وحين فشلت إسرائيل في وقف مسيرات العودة التي أصبحت كأنها نمط حياة بالنسبة إلى كثير من الشبان والعائلات الفلسطينية، راحت تبحث عبر وسطاء لوقفها في مقابل تقديم بعض التسهيلات التي لا تصل إلى مستوى الطلب الفلسطيني برفع الحصار. فالفلسطينيون يعرفون أن التسهيلات التي تتحدث عنها إسرائيل هي عبارة عن إجراءات تافهة يمكن لها أن تعود عنها بسهولة وسرعة، بعد أن تحقق هدفها في وقف مسيرات العودة، كما يعرفون أن إسرائيل ليست محل ثقة، ولا هي دولة تحترم التزاماتها.

محاذير

تتقاطع المخاطر التي تهدد الحقوق الوطنية والوجود الفلسطيني في القدس، مع بقية عناصر المخطط الأميركي الصهيوني الذي يستهدف مصادرة بقية الحقوق، بما في ذلك عزل غزة وفصلها عن المشروع الوطني الفلسطيني، لكن الدماء التي سالت وتسيل في غزة يجب ألاّ يتم تجييرها لحلول خاصة على حساب بقية الحقوق.

فقد جرت محاولات إسرائيلية تحت الطاولة لتبريد جبهة غزة، وإطفاء جذوة الغضب الشعبي عبر وعود بتسهيلات لا ترقى إلى مستوى رفع الحصار المفروض عليها. لكن بينما تلتزم جميع الأطراف المعنية بالصمت، فإن ثمة مؤشرات إلى تفاهمات جرت خلال لقاء رئيس المكتب السياسي لحركة "حماس" مع جهاز الاستخبارات المصرية قبل يوم واحد من الاحتفال بافتتاح الولايات المتحدة لسفارتها في القدس. معلوم أنه ما كان من الممكن أن تؤدي أي تفاهمات إلى تراجع الحشود الشعبية خلال ١٤ و١٥ أيار/مايو، لكن إسرائيل ارتكبت في الرابع عشر مجزرة بشعة راح ضحيتها نحو ٦٥ شهيداً، وما يقارب من ٤٠٠٠ جريح، الأمر الذي عمّق ورطتها أمام المجتمع العربي والإسلامي والدولي. غير أن ذلك لم يكن نهاية التفاهمات. أمّا المؤشرات إلى وجود مثل هذه التفاهمات، فظهرت ميدانياً بعد ذلك، إذ قرر الرئيس عبد الفتاح السيسي فتح معبر رفح طوال شهر رمضان، بينما سحبت إسرائيل جزءاً ملحوظاً من القناصين والقوات العسكرية، وقيدت شروط إطلاق النار، وأعلن وزير دفاعها أفيغدور ليبرمان إعادة فتح معبر كرم أبو سالم الذي دمره الفلسطينيون. وفي المقابل جرى ضبط الحشود الفلسطينية على الحدود بعد يوم الخامس عشر، وتراجعت على نحو ملحوظ الإصابات بينهم.

لم تظهر بعد كامل البنود التى جرى التفاهم عليها، لكن من المحظور على حركة "حماس" أن تتصرف وحدها بالقرار حتى إن كانت قادرة على اتخاذه وتنفيذه، بل يترتب عليها أن تؤكد صدقيتها بالشراكة الوطنية، فهي ليست الوحيدة في الميدان، ولا هي الوحيدة التي قدمت تضحيات. ما جرى هو استثمار وطني يليق بغزة كحامية للمشروع الوطني منذ أيام النكبة الأولى؛ فغزة على الرغم من معاناتها وآلامها، حلقة أساسية من حلقات الفعل الوطني الفلسطيني، وكي لا يؤدي الاستفراد بها إلى خدمة المخططات الإسرائيلية، فإن هذا يقتضي تحريك المصالحة الفلسطينية، والاستعداد لتقديم التنازلات لمصلحة استعادة الوحدة، ما دامت أطراف الانقسام مستعدة لإجراء تفاهمات مباشرة أو غير مباشرة مع إسرائيل. ■